

التركان

التركان من أكبر الشعوب التورانية ، وهم بادية الترك ومبدوهم ، كما الأعراب بادية العرب ومبدوهم ، لأنهم في الأصل أهل ضرع وخيام يرحلون ويحلون ، أوطانهم الأصلية في براري اسية الوسطى الممتدة بين جزر الخزر وبحر خوارزم ونهر جيحون ، وهم أول من أسلم من الترك في القرن الرابع الهجري ، وصاروا يدعون من ذلك الحين (تركان) بعد أن كانوا في جاهليتهم يدعون (اوغوز) أو (غز) بضم الغين والزال ، كما ترى ذلك من توارينغنا العربية القديمة ، التي كانت تذكرهم تارة باسم (غز) وتارة باسم (الخوازمية) .

ولما أسلموا في القرن الرابع الهجري ، هاجروا نحو ديار الإسلام ، وانتشروا في شمالي غربي إيران وشمالي شرقي الأناضول ، أي في أنحاء طبرستان وكيلان وأذربيجان وأذربيجان وديار بكر ، ثم بلغوا الأناضول ، وهم إذا كانوا أهل حرب وبأس ونجدة ، هرعوا للتعبد في جيوش الخلفاء والملوك المسلمين ، وبرزوا في طاعتهم وجلادتهم ، وفي الحروب الصليبية أبلوا بلاءً حسناً تحت لواء السلاطين السلجوقيين والملوك الأتابكيين والأيوبيين والسلاطين المماليك ، كما فصله مؤرخوا تلك العهد ، وشرحوا الفظائع التي ارتكبتها وقتئذ بعض متشردتهم ، في أزمنة وأمكنته عدة .

والتركان في بلادهم الأسيوية كالأعراب ، ينقسمون إلى عشائر مختلفة ، لا يتسع المجال لتعدادها ، وأشهرها وأكبرها تكة وأيلي ويومود وأساري وأفشار وقايي خان التي منها آل عثمان وغيرها ، وقد تخضر هؤلاء - إلا قليلاً منهم - بعد هجرتهم واستقرارهم ، في بلاد إيران والأناضول ، وأسس بعضهم دويلات على أنقاض السلجوقيين ، كما مارة ذوي الغنم البيض في أنحاء ديار بكر ، وذوي الغنم السود في أنحاء أذربيجان ، وآل قرمان في قونية ، وآل رمضان في اذنة ، وآل ذوي القدر في مرعش ، وآل عثمان في بورسة وفي استانبول وغيرهم .

ولا يزال من ذراري هؤلاء زرافات بادية ، يرحلون وينزلون في براري ومراعي

حلب وأذنة وقونية وغيرها ، كما أن منهم أناس قد تركوا البداوة وتحضرُوا ، تجدهم الآن في شمالي العراق والشام ، وفي أنحاء أَرْضِ روم و سِيواس ، وبعض أجزاء إيران والقفقاس ، وهم ما برحوا محتفظين بتركابيتهم ، حتى أن ملاحظهم ولغاتهم تختلف عما لدى الأناضول عامة واستانبول خاصة .

وعند التركان أكثر خصائص التورانيين وملاحظهم ، فرؤوس التورانيين كما لا يخفى هي مدورة ، ووجوههم عريضة ، ووجناتهم بارزة ، وعيونهم ضيقة ، وأنوفهم فطس ، وشفافهم غليظة ، وسننهم صفراء سمراء ، وشعورهم سود ، ولحاهم فرقة ، بيد أن التركان والترك بعد أن امتزجوا وخلطوا دماءهم بغيرهم من الشعوب ، تبدلت ملاحظهم هذه ، وبعدت عما لدى أبناء جلدتهم الأصليين المعروفين بالنتار ، في شرقي أوربا والمعروفين بالمغول في شرقي آسية ، وأكثرهم ابتعاداً عن التورانية الأصلية هم سكان مدن الأناضول والروملي ، المختلطين بعناصر آرية وسامية شتى منذ الفتح العثماني .

والتركان ذوو سجايا وأوصاف خاصة ، أبرزها طول قامتهم ، وصحة أبدانهم ، وسناجة أفكارهم وأطوارهم ، وشدة بأسهم وجلدهم ، وأنهم جنود نظاميون بالطبع والخلقة ، وهذا ما حمل خلفاء المسلمين وسلطينهم على تجنيد عدد كبير منهم ، وقد اشتهرت الدول والإمارات التي أنشئوها من بعد بسطوتها ومنعتها ، كما اشتهروا هم في كل زمان ومكان ، بفرط طاعتهم لسادتهم وكبرائهم ، ولهم الآن جمهورية خاصة ضمن الاتحاد الروسي السوفياتي اسمها (جمهورية تركانيا) .

ولباس رجال التركان القدماء قميص طويل ، فوقه جبة طويلة ، يشدون في وسطها زناراً ضيقاً ، وأحذيتهم جزمة طويلة ، أو نعل عادي من جلد البعير ، أو الخيل ملفوف بالصوف ، وأغطية رؤوسهم قلنسوة بشكل الخروط الناقص ، من جلد الحملان أو اللباد ، أما نساؤهم وإن كن سافرات يسترن رؤوسهن بمنديل طويل ، ويكثرن من التزين بالخلي .

والتركان القدماء رحل ، يسكنون الخيام التي تدعى (خركاه) ، وهي تختلف عن مضارب الأعراب ، فهي مدورة أو مربعة ، مسقوفة باللباد أو الحصير ، ورجالهم يوقرن النساء ، ولا يمسوهن بسوء ، ويمنحوهن الحرية التامة ، فتراهن ذاهبات آيات ، من مكان

إلى مكان بكل طلاقة ، ولا يتحاشين من مكاملة رجل غريب أو من سلامه ، وهن صناع
البيدين ، لا يفترن لحظة عن غزل الصوف والقطن ، ونسج السجاد والبسط ، وطحن
الحبوب ، ناهيك عن الأعمال المنزلية التي يتقنها ، ولا يتوانين عنها .

وكل التركان مسامون سنيون شديداً التعلق بعقائد الإسلام وأركانها ، عن ورع وولع
فطريين عجيبين ، إلا أنهم متأخرون جداً في مضار الدراية والثقافة والنباهة .

وتركان بلاد الشام يتوزعون في محافظات وأقضية ونواحي عديدة إليك بيانها :

محافظة حلب : في قرى عديدة من أقضية جرابلس ومنبج والباب وأعزاز كآق طاش
وبكشلي وتليلة وحاجي كوسا وخليصة وطاشلي هيوك وهواهيوك وقنطرة وكريجلي
وميرخان وميرزا شهيد وجوبان بك وغيرها .

محافظة حماه : في ناحية الحميري غربي حماة قرىتا عقرب وطف .

محافظة اللاذقية : في قضاء مصيف في ناحية حذور قرى حرملة وحوير وبيت
ناطر ، وفي قضاء اللاذقية قرى ناحيتي البائر والبسيط والساحل كبرج إسلام والصليب
وكبلية وسراري وكبرة وجقورجاق وقولجوق وكبير وشمر وران وقبيلية ويامادية وكشيش
وبدرسية وفاقي حسن وعيسى بكلي وبوزا وغلان وغيرها .

في الجمهورية اللبنانية : في قضاء عكار : قرى دوسة وكواشرة وعيدمون وجديدة .

محافظة حمص : في ناحية الوعر غربي حمص قرى برج قعيا وقزحل وأم القصب
ومرج القطا والزيبق وخربة التين محمود وخرخر والدار الكبيرة .

محافظة دمشق : في قضاء قلمون قرية قلدون ، وفي قضاء الجولان عين عائشة
ورزانية وضايبة وأحمدية وحسينية وحفر وعين سمس وكفرنفاخ وقادرية وعليقة وسنديانة
ومغير .

محافظة حوران : قرية براق في قضاء إزرع شمالي اللجا ، وهؤلاء أشتات من أتراك
الأناضول المتحضرين والقادمين منذ نصف قرن أو أقل .

شرقي الأردن : في قضاء جرش قرية الرمان . وفي قضاء عمان عيون الحمير .

هذا ولا يعرف أحد التاريخ الحقيقي الذي جاء فيه تركاننا إلى بلاد الشام ، حتى ولا التركان أنفسهم الذين تتضارب أقوالهم في كل مكان ، ويظهر أن مجيئهم إلى بلاد الشام حدث على مرتين : الأولى قبل الفتح العثماني بعدة قرون ، في عهد الدول الأتابكية والنورية والصلاحية ، فقد ذكر التاريخ أن الأتابك عماد الدين زنكي سير طائفة منهم إلى الشام ، وأسكنهم في ولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الصليبيين ، وملكهم كل ما يستقذونه من بلاد للصليبيين ، وذكرت أن نور الدين وصلاح الدين أسكنا كثيراً من أبناء جلدتها التركان والأكراد في ساحل الشام وداخله ، وعمل مثلهم الظاهر بيبرس وأخلافه من السلاطين الماليك الترك والشركس ، وكان قسم عظيم من جند المسلمين في تلك العهود من التركان ، فتديروا البلاد ، واستعرب كثير منهم وذاب في البوتقة الشامية ، وظل قليلهم على تركانيته الصرحاء ، ومن هؤلاء تركان جبال اللكام في لواء الأسكندرون وتركان أقضية الباب وجرابلس وأعزاز وسهل العمق القريبيين إلى الأناضول منذ القديم ، ولعل من هؤلاء تركان ناحية حذور في قضاء صافيتا ، الذين ينسبون أنفسهم إلى عشيرة قايي خان ، ويزعمون أنهم بعد غرق سليمان شاه جد آل عثمان في الفرات لم يلحقوا بأبنائه إلى الأناضول ، بل زحفوا جنوباً وتديروا الناحية التي هم فيها ، ومما يؤيد دعواهم جملة وردت في تاريخ الصالحية لابن كنان (ص ٩٤) في ذكر ما حل بعشيرة قايي خان بعد موت رئيسها سليمان شاه قوله : وتفرق من معه من التركان في أطراف البلاد وذرايرهم موجودون رحالون نزالون . أ هـ .

والهجيء الثاني الذي هبط فيه التركان المناطق العربية كحماة وحصص والجولان واللاذقية حدث بعد الفتح العثماني خلال القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وظل مستتراً في فترات متقطعة حتى أوائل القرن الثالث عشر ثم توقف ، قيل إن الذي أتى بهم بادئ ذي بدء هو السلطان سليم العثماني لما فتح الشام في سنة ٩٢٢ هـ جلب معه منهم بضعة آلاف واشتركوا جميعاً في معركة مرج دابق ، فكافأهم بإسكانهم في البلاد المفتوحة ، ليؤلفوا فيها نوعاً من السؤدد العسكري المكلف بحفظ الأمن ، ثم اقتدى به أخلافه من السلاطين والوزراء ، فصاروا كلما رأوا النصيرية في غربي حماة وحصص يعكرون صفو

الأمن ، وكلما سمعوا بأن البدو وخاصةً الموالي في جنوبي حلب ، والفضل والسردية في جنوبي دمشق ، يستبيحون حمى المعمور ، أو يقطعون السابلة ، أو يهاجمون ركب الحج ، كانوا يجلبون من عشائر التركان الضاربة في سهول آذنة وقونية وأيدين ويمحونها قري وضيعات من التي خلت من ساكنيها ، بسبب حوائج الأوبئة أو الفتن غير المنقطعة في تلك العهود ، ويوطدون سطوتهم بها ، إلى أن استغنوا عنها بجند الدرك والنظام ، بعد الإصلاحات التي شرع بها السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٥٥ هـ .

هذا ويبدو أن تركان بلاد الشام هم من عشائر مختلفة ، نسيت أسماؤها ومنابتها على طول العهد ، لكن العارفين ينسبون تركان أقضية تل كلخ وعمار وصافيتا وحمص وحماة والجولان في الغالب إلى عشيرة أفسار الكبيرة الضاربة حتى الآن في قلب الأناضول ، حول سيواس وأقرة ، لأنهم يماثلون رجال تلك العشيرة ونساءهم ، في صحة الأبدان ، وجمال الوجوه ، وتقارب اللهجات ، بينما ينسبون الذين في ناحيتي البايير والبسيط في شمالي اللاذقية إلى تركان أرضروم وأرزنجان وكاخ في شرقي الأناضول .

وتركاننا ماعدا الذين في شمالي حلب واللاذقية قد استعربوا ، في اللغة والأزياء ، فلبسوا الكوفية والعقال ، والقنباز ، واكتسبوا أكثر العادات القروية الشامية ، بحيث صار الغريب لا يميزهم عن أبناء البلاد الأصليين ، إلا إذا حدى في وجوههم وعيونهم ، وأصغى إلى أحاديثهم فيما بينهم ، يجدهم مابرحوا محتفظين بملاحمهم التورانية ، وبلغت تركية قديمة سقيمة ، مخلوطة إلى حد النصف بكلمات ومصطلحات عربية عامية ، وجميعهم بعد أن كانوا لمضي قرن أو أقل ذوي سلطة وثروة غير يسيرتين ، أخنى عليهم البؤس والفقر ، وأضنام الجهل والخبول ، فلم يعد يسمع لهم ركز ، ولا يظهر بينهم ذوو شأن ومكانة إلا ما ندر ، وهم أناس على الفطرة ، مغمورون ، وعلى الحكم والبلواء صابرون ، ولأوامر الحكام طائعون ، وللنظام حافظون ، وهم في كل مكان ذوو صلاة حسنة مع جيرانهم ، وقد باتوا الآن خلافاً لسجاياهم القومية القديمة يعرضون عن التطوع في الجندية ، وعن العمل في الوظائف الحكومية ، حسبهم الانصراف إلى حرثهم وزرعهم ، وضرعهم ونسجهم دون غيرها ، وهم نظيفوا المسكن والملبس ، ونساؤهم جميلات التكوين والخلق في الجملة .

ولبعض التركان عناية واختصاص بصناعة السجاد ، وأشهر المشتغلين بذلك وأحذقهم

هم تركان قرية عيمدون في قضاء عكار والحزازرة القاطنون في ناحية حذور من قضاء صافيتا ، وقد ظل هؤلاء مستقلين بهذه الصناعة قروناً ، إلى أن تلقفها منهم جيرانهم النصارى ، وأتقنوها إتقان التركان لها ، وكان التركان يحصلون من السجاد أرباحاً وافرة ، لرواج سوقه في الأيام الماضية ، قبل نصف قرن ، إلى أن كسد منذ أن دخل السجاد العجمي الفاخر وانتشر ، وكان السجاد التركي لا يفقد شيئاً من رونقه ومئاته ولونه يضاهاه الخمل ، وكان الغالب صنع السجادات المربعة ، إلى إن بطلت هذه ، واستعاضوا عنها بما يدعونها (قياساً أو لياناً) ، وهو مستطيل بعرض متر ونيّف ، وطوله حسب الطلب .

وتركان قضاء الجولان يعنون بالضرع عنايتهم بالزرع ، تبعاً لطبيعة أراضي هذا القضاء ، وهم يقضون الربيع في خيامهم التي يضربونها حول قراهم ، وفي الشتاء يأوون إلى دورهم الحجرية ، وقراهم في الجولان منبثة بين الأوعار والحجارة السود المنحدرة نحو وادي الشريعة ، كالقرى التي لأقاربهم في حمص وحماة المنبثة بين أوعار غربي العاصي ، وتركان الجولان ذوو سمعة طيبة وألفة حسنة مع جيرانهم العرب والشركس ، وكبيرهم هنا هو فائز أغا بن محمود أغا ، ومحمود هذا أخو موسى أغا خليفة الذي كان زعيم تركان الجولان سابقاً وذا سطوة وثروة كبيرتين في عهده .

ومن التركان في أنحاء حمص الشرقية قسم لايزال على بداوته ورحلته ، يدعون (تركان سوادية) تمييزاً لهم عن التركان البيضاء المستقرين في قرى حمص الغربية ، أو لعلمهم في الأصل من التركان ذوو الغنم السود (قره قيو نلو) ، وهؤلاء السوادية يشتون في براري حمص الشرقية والجنوبية ، حول قرى القنية وحولايا وحمام أبي رباح وحسية والقصير ، ويقضون في جرود بعلبك وربما بلغوا زحلة ، وقد لقيتهم مرة ذاهبين إلى حوران للعمل في رجاد الزروع ، وهم يتقنون صنع اللبن الرائب ، كما يتقن التركان البيضاء صنع الجبن التركي ، والاثنان مشهوران في أسواق حمص والقنيطرة ، كما يتقن تركان غربي حماة صنع القشطة الجامدة المعروفة في أسواق حماة بالبيرت .

ومثل هؤلاء التركان السوادية الرحل عشيرة التركان الضاربة في شمالي الرقة ، لكن هذه قد استعربت بالمرّة ، ولم يبق لها من التركيانية إلا الاسم ، ومثلها في الاستعراب التام العشيرة المسماة بالتركان في مرج ابن عامر في حيفا من أعمال فلسطين .

أما تركان أفضية حلب الشمالية فهم لم يستعربوا ، ولم تتحول أفئدتهم وأبصارهم بعد من الشمال إلى الجنوب ، لإهمال المسؤولين عندنا تعليمهم وتوجيههم ، وهم مقيمون ومزارعون في قرأهم المذكورة آنفاً ، التي قسم كبير منها من أملاك الدولة ، وقسم للملاكين حلبيين كأل المدرس وآل الجابري وآل الرفاعي وآل النبيكي ، وهم ممتدون في حدودنا الشمالية من نهر الساجور حتى جبل الكردي في عرض عميق ، ويرأسهم هنا نعيان آغا بن كل محمد بن مصطفى باشا المقيم في قرية بلوة .

وتركان شمالي اللاذقية أيضاً كتركان حلب في عدم الاستعراب والاسترشاد ، ناهيك بآهم عليه من حرمان الثقافة والنباهة ، وفرط التواكل والحمول ، وحكومة اللاذقية تضن عليهم بالمدارس والملاجئ الصحية ، ورؤساءؤهم (أغواتهم) الاقطاعيون ، يستغلون هذه الحالات ، ويزيدونهم إمعاناً بها ، بينما جارتنا الشمالية ترنو إليهم ، وتود ضمهم إلى لواء الأسكندرونة ، وتجعلهم الفينة بعد الفينة حجة للادعاء والتهويش على أبناء بلاد الشام وجمهوريتهم ، وعدد هؤلاء يقدر بـ ٢٥٠٠٠ نفس ، وصفهم الجنرال جاكوف في كتابه أنطاكية ج ٢ ص ٥٢٢ فقال : والتركاني قوي البنية ، صبور قنوع ، وله مشية خاصة تم عن غرور وخيلاء ، وأصغر ملك في قرى التركان يلقب بالآغا ، وغالب هؤلاء الأغوات يزدرون الأعمال اليدوية ، ويسامون مزارعهم إلى الفلاحين العلويين ، ومن ثم صارت أملاكهم تنتقل رويداً رويداً إلى أرمن كسب ومسيحي اللاذقية أ هـ .

